(٩٠)

أبو سفيان فى المدينة
يطلب مد الهدنة!

* أبو سفيان: يا بنية!! أرغبت بهذا الفراش عنى، أم رغبت بى عنه؟!
* أم حبيبة بنت أبى سفيان: بل رغبت به عنك، وأنت امرؤ مشرك!
* لا أحد يجير على رسول الله، جوارنا فى جوار رسول الله!
* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

[سورة النساء: آية: ٩٤]

* * *

«المدينة، وقد استيقظت ديار الأنصار والمهاجرين على سفارة عجيبة آتية من مكة، سرى نبؤها بسرعة البرق بين أحياء المدينة، وتنادى الناس أن أبا سفيان بن حرب كبير المشركين من قريش قد أتى المدينة ينشد لقاء الرحمة المهداة عليه السلام.. سرعان ما يستدعى الخبر ما كان المسلمون قد سمعوه من النبى من أيام.. ألم يقل لهم عليه السلام «لكأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد فى الهدنة»..».

مسلم : (لآخر) أتراه جاء ينشد زيادة أجل عهد الحديبية..

الآخر : إن لم يكن ذاك، فلم تراه قد أتى إلى المدينة حيث دار الهجرة؟

(يستأنف) لا أخاله قد جاء يسلم، فمثله مع عناده وصلفه لا يسلم، ومن المحال عليه أن يأتى إلى المدينة مسلمًا!!

الأول : لم يعد إلاّ لأنه جاء ينشد إطالة المدة وزيادة أجل عهد الحديبية..

* * *

«بيت النبى – عليه السلام – حجرة زوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، يدخل عليها أبوها أبوسفيان بادى الاطمئنان والثقة أنه لدى بنيته..».

أبوسفيان : أبيت اللعن..

أم حبيبة : (لا ترد)..

«يبادر أبو سفيان يريد أن يجلس على الفراش المبسوط بالحجرة، تطير أم حبيبة إلى الفراش فتطويه عنه..».

أبو سفيان : (مدهوشًا قد تملكته الحيرة) ما هذا يا بنية؟!

أم حبيبة : فراش رسول الله!

أبو سفيان : (وقد ازدادت حيرته ودهشته) يا بنية!! أرغبت بهذا الفراش عنى، أم رغبت بى عنه؟!

أم حبيبة : بل رغبت به عنك. إنه فراش رسول الله، وأنت امرؤ مشرك، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله!!

أبو سفيان : (يغالب مرارته ويتصنع الهدوء) يا بنية، لقد أصابك بعدى شر!

أم حبيبة : بل هدانى الله للإسلام.

«أبو سفيان واقف معقود اللسان وقد تملكته الدهشة..».

أم حبيبة : (تستأنف) أنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، فكيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام، وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟!

أبو سفيان : واعجباه، وهذا منك أيضًا؟! أأترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد؟!!!

«ينصرف غاضبًا لا يلوى على شىء!!»

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة، النبى – عليه السلام – جالس فى صحابته من المهاجرين والأنصار.. يدخل أبوسفيان بادى الضيق والاضطراب، فيسارع إلى الرحمة المهداة..».

أبو سفيان : يا محمد! (تعلو همهمات اعتراضات المسلمين)
(يستأنف) إنى كنت غائبًا فى صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا فى المدة..

النبى : فلذلك جئت يا أبا سفيان؟

أبو سفيان : نعم.

النبى : هل كان من قبلكم حدث!

أبو سفيان : معاذ الله!

النبى : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية. لا نغير ولا نبدل..

أبو سفيان : (يكرر ملحًا) يا محمد، اشدد العهد وزدنا فى المدة..

«النبى – عليه السلام – صامت لا يرد، يقف أبو سفيان فجأة ويبادر بالانصراف!»

* * *

«بأزقة المدينة، أبو سفيان هائم على وجهه، تتناوشه الهواجس.. يبحث عمّن يجيره مما هو فيه من هم وكرب وضيق.. يصادف أبا بكر الصديق، فيلوذ إليه مستنجدًا..».

أبو سفيان : يا أبا بكر، تكلم محمدًا، أو تجير أنت بين الناس.

أبو بكر : يا أبا سفيان، جوارى فى جوار رسول الله..

«أبو سفيان يلمح عمر بن الخطاب.. فييمم إليه..».

أبو سفيان : يا عمر، تكلم محمدًا أو تجير أنت بين الناس.

عمر بن الخطاب : (مستنكرًا) أنا أشفع لكم عند رسول الله؟!.. والله لو لم أجد إلاّ الذَّرَّ لجاهدتكم به، ما كان من حلفنا جديدًا فأخلقه الله، وما كان منه متينًا فقطعه الله، وما كان منه مقطوعًا فلا وصله الله!

أبو سفيان : (يتمتم محبطًا) جُوزيتَ من ذى رحم شرًا!!

«أبو سفيان ينطلق لا يلوى على شىء.. يبحث فى أرجاء المدينة عن عثمان بن عفان، يمنى نفسه أنه لن يرده أو يخذله، فهو لين رقيق وقريب القرابة..».

«دار عثمان بن عفان، أبو سفيان يستأذن فيأذن صاحب الدار له، ما يكاد يدخل على عثمان حتى يبادره مملوءًا بالرجاء..».

أبو سفيان : ليس فى القوم أحد أقرب رحمًا منك..

عثمان : ماذا تريد يا أبا سفيان؟!

أبو سفيان : زد فى المدة، وجدد العهد..

عثمان : هذا لرسول الله..

أبو سفيان : كلمه أو تجير أنت بين الناس، فإن صاحبك لن يرده عليك أبدًا.. (يستأنف مشجعًا) والله ما رأيت رجلا قط أكثر إكرامًا لصاحب من محمد لأصحابه!

عثمان : يا أبا سفيان، جوارى فى جوار رسول الله!

«ينصرف أبو سفيان محبطًا مهمومًا، يسأل فى أرجاء المدينة عن بيت على بن أبى طالب..».

* * *

«بيت على بن أبى طالب وقد أذن لأبى سفيان، يدخل أبو سفيان فيصادف فاطمة فى صحن الدار، والحسن يَدِبّ بين يديها..».

أبو سفيان : يا بنت محمد، هل لك أن تجيرى بين الناس؟

فاطمة : إنما أنا امرأة!

أبو سفيان : جوارك جائز، قد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع، فأجاز محمد ذلك.

فاطمة : ذلك إلى رسول الله!

أبو سفيان : (يشير إلى الحسن) مرى ابنك هذا يجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر.

فاطمة : والله ما بلغ ابنى ذلك أن يجير بين الناس.. إن ابنىّ صبيان، وليس مثلهما يجير! وما يجير أحد على رسول الله!

أبو سفيان : (يلتفت إلى على) يا على، إنك أمس القوم بى رحمًا، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائبًا! يا أبا الحسن أجر بين الناس وكلم محمدًا واشفع لى إليه أن يزيد فى المدة!

على بن أبى طالب : ويحك يا أبا سفيان! إن رسول الله قد عزم ألا يفعل، وليس أحد يستطيع أن يكلم رسول الله فى شىء عزم عليه..

أبو سفيان : فما الرأى؟ يسر لى أمرى، فإنه قد ضاق علىّ، وأرى الأمور قد اشتدت، فمُرْ لى بأمر ترى أنه نافعى!

على : والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك شيئًا، ولكنك سيد كنانة..

أبو سفيان : صدقت، وأنا كذلك.

على : فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك..

أبو سفيان : ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟

على : لا والله.. لا أظن، ولكن لا أجد لك غيره..

«ينصرف أبو سفيان، قد جمع أمره أن يذهب إلى المسجد ويبدى ما أشار به على..».

«فى بعض الطريق إلى المسجد، أبو سفيان يصادف سعد بن عبادة، فيحاول معه عساه يعطيه ما يسأل..»

أبو سفيان : (لسعد بن عبادة) يا أبا ثابت، قد عرفت الذى كان بينى وبينك، وأنى قد كنت لك فى حرمنا جارًا، وكنت لى بيثرب مثل ذلك، وأنت سيد هذه البَحْرة (البلدة)، فأجر بين الناس وزد فى المدة..

سعد بن عبادة : يا أبا سفيان، جوارى فى جوار رسول الله، ما يجير أحد على رسول الله..

«يمضى أبو سفيان، تحدثه نفسه بأنه لا سبيل أمامه إلاّ ما أشار به عليه على بن أبى طالب..».

* * *

«المسجد النبوى، وباحة المسجد غاصة بالمسلمين، يدخل أبوسفيان، فيقف بين ظهرانى الناس وينادى بصوت عال..».

أبوسفيان : (مناديًا) ألا إنى قد أجرت بين الناس، ولا أظن محمدًا - يُخفرنى!

«يخرج أبوسفيان بين همهمات المسلمين، فيلحق ببيت الرحمة المهداة يستأذن عليه فيأذن عليه السلام له..».

أبوسفيان : يا محمد.. قد سمعتَ ما قلتُهُ بين الناس، ما أظن أن ترد جوارى!

النبى : (فى هدوء) أنت تقول ذلك يا أباحنظلة!

«يخرج أبو سفيان، فيبادر إلى بعيره، يمتطيه وينطلق إلى مكة..»

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة، وقد عادت السرية التى كان قد بعثها النبى - عليه السلام - فى خمسة عشر رجلا إلى أرض محارب بنجد وبها عشائر من غطفان وجعل عليها أبا قتادة الأنصارى، وأمرها بالسير ليلا والكمون نهارًا، وأن تجعل همها دعوة الناس إلى الإسلام.. ونهاهم إذا اضطروا لقتال أن يقتلوا النساء والصبيان.. مضى على خروج السرية أيام وها هى قد آبت مظفرة، يستقبلها النبى - عليه السلام - والمسلمون بالرضا والتكبير..».

* * *

«بعد أيام، النبى - عليه السلام - يدعو إليه أبا قتادة الأنصارى ويعهد إليه فى بعث ثان بثمانية رجال ليذهبوا إلى بطن إضم على ثلاثة برد من المدينة، فيما بين ذى خُشُب وذى المروة.. للدعوة إلى الإسلام وموادعة القبائل وصرف القرشيين عن وجود أى نية للتوجه إلى مكة..».

* * *

«بعد أيام، ببطن إضم، وفى البعثة مُحَلّم بن جَثّامة الليثى، لا تقصد البعثة كسابقتها سوى أن تنصرف الأنظار عن مكة حتى تطمئن قريش إلى أن النبى - عليه السلام - مشغول عنها..».

«رجال البعثة وقد عسكروا ببطن إضم، يمر بهم عامر بن الأضبط الأشجعى..».

عامر بن الأضبط الأشجعى: السلام عليكم ورحمة الله..

أبو قتادة والبعثة : وعليك السلام ورحمة الله.

«مُحَلّم بن جَثّامة الليثى ينفلت فجأة مندفعًا من بين أصحابه، ويحمل على الأشجعى فيصرعه قبل أن يتنبه أصحابه لنهيه عما أزمع.. ما يكاد يفعل حتى يقرعه أبو قتادة الأنصارى تقريعًا شديدًا..»

أبوقتادة : (غاضبًا) ماذا فعلت؟!.. لقد حيانا الرجل بتحية الإسلام!!

مُحَلّم بن جَثّامة : إنه ينافق..

أبوقتادة : (وقد ازداد غضبه) أشققت عن قلبه؟!.. أمرك إلى رسول الله..

«مُحَلّم بن جَثّامة تركبه الحيرة، وينعقد لسانه، فلا يجد ما يقوله!!».

* * *

«البعثة بعد أيام، وقد انتهت إلى ذى خشب، فوجدت النبى - عليه السلام - بالسُّقْيا.. فى الطريق بين المدينة ومكة، لا يكاد النبى - عليه

السلام – يسمع من أبى قتادة ما كان من أمر مُحَلّم بن جَثّامة مع الأشجعى حتى علا محياه الغضب..».

النبى : (لمُحَلّم) أقتلته بعد ما قال إنى مسلم؟!

مُحَلّم بن جَثّامة : يا رسول الله إنما قالها متعوذًا!

النبى : أفلا شققت عن قلبه؟!

مُحَلّم : لم يا رسول الله؟

النبى : لتعلم أصادق هو أم كاذب.

مُحَلّم : كنت عالمًا بذلك يا رسول الله، وهل قلبه إلاّ مضغة من لحم؟

النبى : إنما كان ينبئ عنه لسانه.. (يستأنف مؤنبًا) لا ما فى قلبه تعلم ولا لسانه صدقت!!

مُحَلّم : (وقد ركبه الحزن) استغفر لى يا رسول الله..

النبى : لا غفر الله لك!

«مُحَلّم ينهض متخاذلاً أسيفًا وهو يتلقى دموعه بِبُرْديه.. لا تؤذن حالته بخير!!».

* * *

«النبى – عليه السلام – فى تعبده وتحنثه، يوافيه جبريل – عليه السلام – فيتلو عليه من آيات ربه..».

جبريل : (يتلو) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ

كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ [سورة النساء: آية: ٩٤]

(يرتفع الوحى)

«النبى - عليه السلام - مع أصحابه، يتلو عليهم الآية ٩٤ من سورة النساء.. ينهى إليه أصحابه أن مُحَلّم بن جَثّامة قد فاضت روحه على غير توقع، وأن الأرض التى دفنوه فيها بأمس قد لفظته اليوم!!».

النبى : (لأصحابه) إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله تعالى أراد أن يعظكم فى حرم ما بينكم بما أراكم منه..

«الصحابة يكبرون ويسترجعون..»

* * *

«مكة ليلا وقد أرخى الليل سدوله، وآب الناس إلى بيوتهم.. يصل أبوسفيان من رحلته بالمدينة - كسيرًا مهمومًا، فيقصد بيته ويدخل على زوجه هند.. لا تكاد ترحب به حتى تبتدره..».

هند بنت عتبة : (لائمة) احتبست حتى اتهمك قومك!

أبوسفيان : (يردد مستنكرًا) اتهمونى؟!

هند : حين طالت غيبتك اتهمتك قريش، وقال بعضهم: إنا نراه قد صبأ واتبع محمدًا سرًّا وكتم إسلامه؟!

أبوسفيان : (يردد غاضبًا مستنكرًا) إسلامى؟!.. ما كان غيابى بيدى!!

هند : إن كنت مع طول الإقامة هناك جئتهم بنُجح فأنت الرجل!

«أبوسفيان يتجنب الإجابة، ويسعى للاقتراب منها، يريد أن يصرفها بوصالها عن سؤاله..».

هند : (بإلحاح) ما صنعت؟!

أبوسفيان : (متلجلجًا) ما كان...

هند : (مقاطعةً) ما صنعت؟!

أبوسفيان : أبى محمد وأصحابه أن يجيرونى، وأبى أبوبكر وعمر وعثمان أن يتشفعوا لى أو يحدثوا محمدًا فى زيادة المدة وتجديد العهد!..

هند : (لائمة) خبت إذن!!

أبوسفيان : لم أجد إلاّ ما قال لى على.. دخلت مسجد محمد، فأجرت بين الناس، وقلت لهم ما أظن محمدًا يخفرنى!

هند : ومحمد؟!

أبوسفيان : لحقت به فى بيته، وقلت له إنى أجرت بين الناس، وما أظنك ترد جوارى!.. فلم يزد على أن قال لى: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!

هند : (ثائرة وهى تدفعه عنها) قبحت من رسول قوم.. فما جئت بخير!!

«هند تنأى فى الفراش وتعطيه ظهرها مغاضبة!!».

* * *

«فى الصباح بباحة الكعبة.. أبوسفيان أمام إساف ونائلة وقد ساق بعض الذبائح.. يبدأ فيحلق رأسه، ثم يذبح أمام الصنمين ويمسح بالدم رأسيهما..».

أبوسفيان : (للصنمين وهو يمسح رأسيهما بالدماء) لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى..

«أبو سفيان يلمح القرشيين يراقبونه بمنتداهم بظاهر الكعبة.. فيعاود مسح رأس إساف ونائلة بدماء الذبائح.. ويستأنف إبداء عهده بصوت عال وهو ينظر بجانب عينيه إلى قريش يريد أن يبرأ أمامها مما اتهمته به..».

أبوسفيان : (يكرر بصوت عال وهو يمسح على الصنمين) لا أفارق عبادتكما حتى أموت على ما مات عليه أبى!

«القرشيون ينهضون من منتداهم فيلحقون بأبى سفيان أمام إساف ونائلة..».

القرشيون : ما وراءك يا أبا سفيان؟! هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة فى مدة؟!

(يستأنفون وقد لاحظوا تلكؤه فى الإجابة) ما نأمن أن يغزونا محمد؟!

أبوسفيان : والله لقد أبى علىّ!

القرشيون : (يرددون مستنكرين) أبى عليك؟!

أبوسفيان : لقد كلمته، فوالله ما رد علىّ شيئًا.. وكلمت أبا بكر فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى (أعدى) العدو!

القرشيون : وعثمان؟!

أبوسفيان : قد كلمته وكلمت علية أصحاب محمد، فما قدرت على شىء منهم إلاّ أنهم يرموننى بكلمة واحدة أنه لا يجيرون على رسول الله؟!!

(يستأنف مغيظًا) ما رأيت قومًا أطوع لملك عليهم منهم له!!

القرشيون : قد ردوك جميعًا؟!

أبوسفيان : إلاّ على بن أبى طالب.. لما رأى أن الأمور قد ضاقت بى قال لى: أنت سيد بنى كنانة، قلت له: نعم. فقال: فأجر بين الناس، فدخلت مسجد محمد وناديت بالجوار، ولحقت بمحمد فى داره وقلت له إنى ناديت بالجوار وما أظنك ترد جوارى، فما زاد على أن قال لى: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة»!

القرشيون : (لائمين) ما زاد على أن تلعب بك تلعبًا!.. رضيت بغير رضا، وجئت بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئًا، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين.. ما زاد على أن لعب بك تلعبًا!!

أبوسفيان : (محبطًا منكسًا) والله ما وجدت غير ذلك!!

القرشيون : (فى هم وضيق وقلق) ما نرى إلاّ أن محمدًا سيغزونا بمكة..

* * *